أمي هل ستعودين إلى حيفا ؟

الأخ أبو حفص

نزل من الحافلة واتجه إلى المحددة . الوقت وقت العطلة الدراسية لذلك كثيراً ما كان يذهب إلى محددة أخيه الواقعة في العيزرية على طريق القدس–رام الله . وما إن نظر إلى المحددة حتى وجدها خالية من البشر و لم تَحِن فرصة الفطور بعد ويلتفت إلى البقالة المجاورة فإذا بمجموعة من الشباب متحلقين ، وجميعهم صامتون ويتجه إليهم فإذا بالمذياع ينشر أخبار الحرب وينضم إليهم دون أن ينبس ببنت شفة إلى أن تبدأ الأناشيد الحربية وقفز الجميع فرحاً ، إنّ كلمات أحمد سعيد وتصريحات الزعماء العرب جعلت الناس يدخلون تل أبيب دون جهد أو تعب ! .. ويلتفت إليه أخوه ويقول له : إنّ في جامع الشيخ لولو مركزاً لتعبئة الجيش الشعبي فاذهب وضع اسمي في القائمة .

يحاول الغلام عبثاً أن يجد حافلة تنقله إلى القدس ولكن كيف يكون ذلك ممكناً وقد انقطعت المواصـــلات بـــين القدس ورام الله . فيسير على قدميه باتجاه المدينة ويلمح من بعيد بائع كعك متجهاً إلى القدس ويتأكد منه : نعم إنـــه يسكن في حارتي . لولا الحادثة التي جرت بيني وبينه قبل أيام لجريت إليه لعله يكون لي معيناً ، ما له ينظر إلى الخلف لعله يبحث عن حافلة أيضاً ولكنه الآن يلوح لي بيده كأنه يقول : أسرع ، أقبل . فلا أجد نفسي إلاّ راكضاً خلفـــه وما إن وصلت إليه حتى قدمت حافلة من القدس وقبل أن تصلنا بمائة متر حولت مسيرها إلى القدس . فوضع الرجل أمتعته في يد وأمسك بي بالأخرى وانطلق نحو الحافلة ، فلمحه السائق فانتظر حتى دفعني داخـــل الحافلـــة وألحقـــني أمتعته ، وما إن صعد حتى كنت قد أخذت مكاني فجلس بجانبي

- الحمد لله . استطعنا أن نجد ما يحملنا ويلتفت إليّ .
- أو تعرفني ؟
- نعم .
- إنني آسف على ما فعلت معك ولكن أيضاً عليكم أن تكونوا أفضل مما أنتم عليه . ما الذي دفعكم أن ترجموا البيت بالحجارة ؟
- أنا لم أرجم و لم أكن مع من رجم كنت عائداً من عند والدي إلى البيت فشاهدت أطفالاً هاربين و لم أجـــد نفسي إلاّ بين يديك أتلقى ضربات دون أن أعرف لماذا وكان يجب عليك أن تحاسبني في ذلك الحين قبـــل أن توقـــع العقوبة .
- أنت لم تكن معهم إذاً إنني آسف جداً لذلك . ولو علمت لما فعلت . ويسرح الغلام قليلا : لو أن الإنـــسان في كثير من الأحيان يفكر ماذا يعمل لما احتاج أن يتأسف على عمل أو أن يطلب السماح من إنسان ..

وصلت الحافلة مرآب السيارات وينـــزل الركاب منها ويدخلون باب العمود ويلتفت الغلام إلى اليسار .. هـــذا هو مسجد الشيخ لولو . كلما أراه أتذكر أيام الطفولة حين كان مسجداً ومدرسة ، واليوم يجمـــع بـــين الـــصلاة والجهاد . ويدخله ويرى البنادق معلقة على الجدار تنتظر المجاهدين .

- من المسؤول هنا ؟
- ذاك الرجل .

ويتجه الغلام إليه .

- أرسلني أخي لأضع اسمه في القائمة وهو قادم حالاً بعد أن يغلق محددته .
- آسف . إنّ تسجيل الأسماء يتمّ في عقبة الميلادية فعليك أن تتجه إلى هناك .

ويتجه الغلام فيجد باب التسجيل قد أغلق ويتوجه إلى البيت فإذا بأخيه خارجاً من البيت حاملاً بندقيته متجهـــاً إلى موقعه .

لقد اعتادت العائلة أن تستيقظ في الصباح لترى ابنها نائماً في فراشه معانقاً بندقيته فيستيقظ ويتناول طعام الفطور ثم ينطلق ثانية ولا يعود لاستراحته إلاّ في آخر الليل .

لقد امتازت الأيام الأولى من القتال بالهدوء النسبي إلاّ من طائرات تحوم فوق المدينة المقدسة على ارتفاعٍ شـــاهق وطلقات من الرصاص وبين الحين والحين قذائف (المورتر) الأردنية وكأن المعركة من جانب واحد وكثيراً ما كـــان يقف الغلام فيقول لأخيه :

- ما نوع بندقيتك ؟
- إمْ واحد .
- وكيف تطلق ؟
- طلقة طلقة .
- وكل الجيش معه مثلها ؟
- لا بالطبع . فقط الجيش الشعبي ، وأما الجيش فمعه بنادق رشاشة .
- كيف تقاتلون اليهود ؟
- نقف على السور ونطلق على كلّ حركة في صفوفهم .

ويجلس الغلام بعد أيام ليستمع مع العائلة الأخبار . إنّ صوت أحمد سعيد بدأ يتغير وقليلاً ما يظهر .. وإذا بأخبار سقوط الجولان وسيناء ومناطق من الضفة الغربية ويسأل الغلام نفسه : كيف يكون هذا و لم يُشَاهَدْ جنديٌ يهـــودي واحد في القدس ؟ وبدأت إذاعة اليهود تحذر من بقي صامداً من الجنود العاقبة وتطلب منهم إلقاء الـــسلاح وتـــأبى القدس .

وعند عصر اليوم الأخير وقد هدأت البنادق قليلاً جلس الطفل بجانب أمه ينظر إلى السماء زرقاء صافية يسألها عن حيفا :

- أمي هل ستعودين إلى حيفا ؟

فتضع يدها على رأسه بحنان فإذا بأصوات انفجارات عظيمة زلزلت الأرض واستمرت ما يقرب الربع ساعة وتغير لون السماء إلى أصفر شاحب ثم إلى سواد حالك وكأن الشمس قد انطفأت ، ثم ينجلي الدخان قليلاً قليلاً فتعـــود السماء صفراء شاحبة ويلحق بها الغروب فيزيد صفرتها ثم يغمرها الظلام .

عاد الشباب ليتحدثوا عن منطقة حارة باب حطة : لقد دمرت تدميراً بالطائرات ، السائر في الشوارع يقـــول إنّ هذه المنطقة لم تشهد حرباً فإذا فتحت الأبواب رأى الإنسان جدراناً حول أكوام من الحجارة .

واستمر قصف المدينة وعاد الابن في موعده وقد هدّه التعب وتنصحه العائلة أن لا ينام مع بندقيته هذه الليلة وأن يضعها في مكان آخر فيرد : فإذا جاء اليهود إلى هنا ماذا أصنع دون سلاح ؟ ونام كعادته .

بقي الوالد يرقب الصباح وقد هدأت حدة القصف حتى انتهت قبل مطلع الشمس فخرج يستطلع الخبر ونظر إلى جبل (هداسة) فإذا بالجنود اليهود ينـــزلون منه كأنهم أفعى تزحف لو تصدى لهم عشرة ببنادقهم الرشاشة لحـــصدوا منهم عدداً كبيرا .. ولكن الأمر لا يحتاج إلى تفكير فيعود إلى ابنه مسرعاً يخبره الخبر فيستطلع الأمر بنفسه ويعلـــم أن المدينة قد سقطت وأنه لا مفر ، وآخر عمل يستطيع فعله أن يكسر بندقيته ويلقي بها في بئر مجاورة مودّعـــاً إياهـــا بالدموع ، مخاطباً نفسه : لقد قلت مرةً لو أن هناك نبياً بعد محمد لكان جمال .. إنني اليوم أكفر بهذه النبوة الكاذبة ، وعلينا أن نعيد حسابنا مع أنفسنا ولن تعودي يا فلسطين إلاّ على يد صلاح الدين وما عقمت الأمة .. ستلد يومـــاً ذلك البطل .